الجهـر والهمس عند سيبويه
في ضوء الدرس الحديث

د. أحمد محمد قدور (*)

قدّم سيبويه في درسه الصوتي، في باب الإدغام تعريفًا للجهر والهمس، فأحدث مشكلة يكتنفها الغموض لدى القدامى، ويَسِمُها الاختلاف لدى المحدثين. وليس مفيدًا إلا لغاية تاريخية الوقوف عند آراء القدامى في هذا الصدد، إذ اقتنع معظمهم بترديد عبارات سيبويه نفسها، أو بمحاولات شرحها من بعيد - ولذلك بقيت عبارات سيبويه على حالها من الغموض، إضافة إلى تداخل مفهومي الجهر والشدّة عند بعضهم(١). على أن بعض القدامى ذهب إلى

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر: كلام المبرد في المقتضب، ١/ ٣٣٠، وابن جني، سرّ الصناعة، ١/ ٦٠، والزمخشري، المفصل مع شرح ابن يعيش، ١٠/ ١٢٨، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص٥، وابن الحاجب، الشافية مع شرحها للأستراباذي، ٣/ ٢٥٧- ٢٥٩، وابن عصفور، الممتع، ٢/ ٦٧١- ٦٧٢، وانظر: مكي القيسي، كتاب الرعاية، ص٩٢، والحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص٢٨٦- ٢٩٢.

رأي يجعل الجهر مساويًا لقوة التصويت، على حين أن الهمس يعادل ضَعْفه. أما سائر مفردات سيبويه في هذا الموضع فبقي على حاله من غير شرح مقنع كما تقدّمت الإشارة.

والمجهور عند سيبويه: «حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النَّفَسَ أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد (عليه) ويجري الصوت. فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة. والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أخلَّ بهما». وأما المهموس عنده «فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فردّدت الحرف مع جري النفس. ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه»(٢).

وقد ناقش المستشرقون المهتمون بالدراسات اللغوية مفهوم الجهر والهمس عند سيبويه اعتمادًا على المفهوم السائد عندهم، وهو أن الجهر صفة للصوت الذي ترافقه ذبذبة في الوترين الصوتيين، وأن الهمس عكسه، أي هو صفة للصوت الذي لايتذبذب معه الوتران. ورأى هؤلاء أن الأصوات التي عدّها سيبويه مجهورة صحيحة بحسب المفهوم الغربي للجهر القائم أساسًا على ذبذبة الوترين ماعدا ثلاثة أصوات يبدو أن تطورًا طرأ على نطقها، هي الهمزة والقاف والطاء. ومع أن القدامى- ومنهم سيبويه- لم يعرفوا الوترين أصلًا، فإنه يمكن

(٢) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٤.

-كما يقول كانتينو- التفطن إلى المقابلة بين المجهورة والمهموسة تفطنًا دقيقًا جدًا بدون معرفة سببها الحقيقي(٣). وعلى هذا المبدأ سار إبراهيم أنيس مفسرًا كلام سيبويه في تعريفه الجهر في باب الإدغام بأنه أثر لاهتزاز الوترين الصوتيين. من ذلك قوله: « ويظلان يتذبذبان حتى ينقضي الاعتماد»، و « الذي لم يكن يعرفه سيبويه هو أن الإخفاء معناه إسكات الذبذبات التي تحدث مع كل مجهور في الوترين الصوتيين بالحَنْجَرَة. ومتى سكتت أو انقطعت تلك الذبذبات انقلب المجهور إلى نظيره المهموس». و«وليس للاعتماد معنى في كلام سيبويه سوى عملية إصدار الصوت». و «لأمر ما عبّر سيبويه بقوله: « أشبع الاعتماد في موضعه، ولم يقل في مخرجه، لأنه كان يشعر بهذا الإشباع في كل مجرى الصوت منذ صدوره من الرئتين إلى انطلاقه إلى الخارج. فكلمة الموضع هنا هي ماعبَّرنا عنه في هذا الكتاب بالمجرى، وفرّقنا بينه وبين المخرج»(٤).

وينبغي الردّ على ماأتى به إبراهيم أنيس على هذا النحو:

أولًا: جعل «الاعتماد» مساويًا لذبذبة الوترين، وهذا غير صحيح، بل ليس عليه دليل من كلام سيبويه.

---

(٣) انظر: كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص٣٤- ٣٥، وقارن بما ورد في الحاشية رقم (١٦) من هذا البحث.

(٤) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص١٢٦، ١٣٢، ١٢٥ على التوالي.

ثانيًا: ذكر أن إسكات الذبذبات يجعل الصوت المجهور مهموسًا، وهو رأي قديم نسخته الدراسات المعاصرة، كما سنذكر لاحقًا.

ثالثًا: فسّر «الاعتماد» مرة أخرى بأنه عملية إصدار الأصوات من الرئتين إلى انطلاقه إلى الهواء الخارجي. وليس على ذلك دليل من كلام سيبويه الذي جعل الاعتماد في الحلق والفم والخياشيم دون غيرها من أعضاء النطق ومواضعه.

رابعًا: وفسّر مصطلح «الموضع» الوارد لدى سيبويه بالمجرى. وهذا تفسير بعيد، لأن سيبويه فرّق بين الموضع والمخرج عن قصد ووعي. فالجهر يظهر -كما يبدو من كلامه- في موضع الحرف (منطقته) لافي مخرجه أو مجراه. لأن المخرج أصغر من الموضع، وهو مشغول بإغلاق مجرى الهواء أو تضييقه. ولا عبرة بما قيل من أن سيبويه عبّر بالموضع عن المخرج في كثير من الأمثلة، لأن السياق هو الذي يحدّد المقصود. وقد تتبّعت كلّ الأمثلة التي ذكر فيها «الموضع» في باب الإدغام فوجدت أنه يصعب بيان المقصود دون الاحتكام إلى السياق وحده. أما ظهور الجهر في «المجرى» وفق أنيس، أي طريق التنفس من الرئتين إلى الخارج فلا معنى له.

خامسًا: فسّر عبارة «منع النفس» الواردة في تعريف المجهور عند سيبويه، بأنها تدل على اقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر حتى ليكادان يسدان طريق التنفس، كما يقول(٥). وهذا تفسير بعيد، لأن منع النفس لايكون على

(٥) انظر: السابق، ص١٢٥.

مستوى الوترين في الحنجرة – كما يبدو لنا– ولكن على مستوى موضع الحرف (مكانه من جهاز النطق) بسبب استثمار قوّة التصويت التي تعادل (إشباع الاعتماد بالحصر) للهواء وتعويق خروجه.

ويخلص أنيس إلى أنه «دلت تجارب المحدثين على أن سيبويه قد عنى بالمجهور ذلك الصوت الذي يتذبذب معه الوتران الصوتيان في الحنجرة، أي (Voiced)، وأن المهموس هو الذي يصمتان معه، أي (Voiceless)»[٦].

أما تمام حسّان فنفى أن يكون تعريف سيبويه للجهر والهمس موافقًا لمفهوم المحدثين القائم على وظيفة الوترين الصوتيين، لأن سيبويه – كما يقول– لم يكن يعرف هذه الوظيفة، بل لم يكن يعرف تركيب الحنجرة بدليل تسميته إياها أقصى الحلق[٧]. ولذلك راح الدكتور حسّان يفسّر تعريف سيبويه بمعزل عن تلك الوظيفة. وخلاصة رأيه هي أن منشأ الاعتماد (الضغط، كما يرى) وموضعه هو الحجاب الحاجز الضاغط على الرئتين لإفراغ مافيهما من هواء. وهو –أي الاعتماد– واقع على مخرج الحرف حيث ينطق. فالجهر إذن نتيجة لإشباع الاعتماد (تقوية الضغط)، كما أن الهمس نتيجة لإضعافه (إزالة التقوية). وسيبويه –كما يرى حسّان– مع إحساسه بهذا الضغط (الاعتماد) لم يكن يعرف مصدره، ولا

(٦) انظر: أنيس، «جهود علماء العرب في الدراسة الصوتية» مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج(١٥) لعام ١٩٦٢، ص٤٣.

(٧) انظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص٦٢.

طريقته، ومن ثَم يكون الربط بين هذا وبين الحجاب الحاجز تفسيرنا نحن للظاهرة، وليس تفسير سيبويه[٨]. ويبدو أن منطلق الدكتور حسّان صحيح، وأن فهمه لمعظم عبارات سيبويه سديد، غير أن تفسيره الجهر بأنه أثر لضغط الحجاب الحاجز بعيد كما نقدّر.

وينبغي أن نتوقف عند مصطلح «صوت الصدر» لأنه وإن لم يرد في تضاعيف تعريف سيبويه للجهر في باب الإدغام استأثر باهتمام بعض الدارسين الذين رأوا أن فيه إيضاحًا لما غمض من كلام سيبويه. فقد نقل إبراهيم أنيس وهنري فليش نصًّا من شرح السيرافي لكتاب سيبويه، يذكر فيه صراحة أن سيبويه فرّق بين المجهور والمهموس عن طريق صوت الصدر الذي يرافق المجهورة، ولا يرافق المهموسة من الحروف. لأن المهموسة تخرج أصواتها من مخارجها في الفم، وصوت الفم وحده هو الذي يبرزها، وهي ضعيفة وقابلة للإخفاء دون أن يضيع من خصائصها شيء. أما المجهورة فلا تكتمل إلا إذا رافقها صوت الصدر[٩]. وقد علق أنيس وفليش على النص المشار إليه بما يفيد أن «صوت الصدر» هو صدى الذبذبات التي تحدث في الوترين الصوتيين بالحنجرة. وموجز القول: «أن الفرق بين المهموسة والمجهورة هو «صوت

(٨) انظر: السابق، ص٦٠– ٦٢.

(٩) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص١٢١– ١٢٢، وفليش، العربية الفصحى، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين، دار المشرق، بيروت ١٩٨٣، ص١٩٨– ٢٠١.

الصدر» غائب في الأولى- المهموسة- موجود ضرورة في الثانية بسبب ارتفاع الصوت. وهكذا استطاع سيبويه أن يشير بوضوح شديد، وبما كان يملك من وسائل التحليل، إلى ماكان يجهله من دور الحنجرة، وهو مانطلق عليه الجهر»[١٠]. ويشار في هذا الصدد إلى أن الأستراباذي وابن يعيش ذكرا في أثناء شرحهما للجهر مايدلّ على اطلاعهما على مفهوم صوت الصدر، وجعله معيارًا للفصل بين المجهور والمهموس[١١].

وذكر سيبويه في الكتاب، ولكن في موضع متقدم على باب الإدغام «صوت الصدر» في تضاعيف حديثه عن الحروف المشربة. والمشربة عنده قسمان، قسم أُشْرِب صُويتًا، هو صويت يحدث مع حروف القلقلة، لأنك «لاتستطيع أن تقف إلا مع الصويت، لشدّة ضغط الحرف. وبعض العرب أشدّ صوتًا، كأنهم الذين يرومون الحركة». وقسم أشرب «صوت الصدر»، وهو الذي يرافق حروف النفخ، وهي لم تضغط ضغط الأولى. لكنها حين تخرج بصوت الصدر ينسل آخره وقد فتر من بين الثنايا، لأنه يجد منفذًا، فتسمع نحو النفخة. أما الحروف المهموسة فكلُّها - كما يقول - تقف عندها مع نفخ، لأنهن يخرجن مع التنفس لاصوت الصدر. أما اللام والنون والميم والعين والغين والهمزة فليست من

(١٠) انظر: أنيس، ص١٢٢، وفليش، ص٢٠٠، والكلام المقبوس له.

(١١) انظر: شرح الشافية للأستراباذي، ٣/ ٢٥٨- ٢٥٩، وشرح المفصل لابن يعيش، ١٠/ ١٢٩.

ذينك القسمين، إذ لاتسمع بعدها في الوقف شيئًا مما ذكر، لأنها لم تضغط ضغط القاف (وأخواتها)، ولا تجد منفذًا، كما وجد في الحروف الأربعة (حروف النفخ) مع الراء. والصحيح هنا هو أنّ هذه الحروف ليست مشربة[١٢]. ويرى غانم قدوري الحمد أنه يترجح من سياق النص أن المقصود بالحروف المشربة هي حروف الجهر، لأنها أشربت صوت الصدر، في مقابل الحروف المهموسة. غير أن سيبويه لم يذكر «المشربة» في سياق تعريفه المجهور في باب الإدغام[١٣]. وسيبويه لم يذكر إشراب صوت الصدر إلا لحروف النفخ الأربعة، وهي الزاي والذال والضاد والظاء، ثم ألحق بها الراء بعد ذلك. أما أصوات القلقلة فلم يرد فيها صوت الصدر أصلًا. ولذلك يبقى استنتاج الحمد ناقصًا، ولا يصح إلا على حروف النفخ دون غيرها مما ورد لدى سيبويه. لكننا إذا عددنا ماورد من حروف ضمن «القلقلة»، وهي حروف «قطب جد»، وما ورد من حروف النفخ الأربعة المذكورة آنفًا مع الراء، فهي جميعًا تقع ضمن المجهورات. أما المهموسة التي أشار إليها سيبويه في هذا الموضع فالمراد منها التفريق بين النفخ مع تلك الحروف التي تخرج بصوت الصدر من جهة، والنفخ مع هذه الحروف المهموسة من جهة أخرى. إذ إن النفخ مع المهموسة عامّ، لأنها تخرج مع التنفس أصلًا.

(١٢) انظر: الكتاب، ٤/ ١٧٤– ١٧٥. وجاء في الكتاب عن القسم الأخير أنها مشربة في طبعة هارون وبولاق. والسياق يدل على أنها لم تشرب شيئًا. انظر: ط. هارون، ٤/ ١٧٥ وط. بولاق، ٢/ ٢٨٤.

(١٣) انظر: الحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص٢٩٠.

ومهما يكن من أمر فإن فهم «صوت الصدر» على أنه صدى الذبذبات التي تحدث في الوترين شيء مختلف عن فهم تعريف المجهور والمهموس لدى سيبويه في باب الإدغام، إذ لايمكن تجنب ذلك التعريف الشائك باللجوء إلى بعض النصوص التي لم يكن تحديد الجهر مقصودًا فيها على النحو الوارد في باب الإدغام(١٤). على أنه لايمنع أن يفهم من صوت الصدر أثر ما، أو صدى لحركة الوترين نحسّ به لقوته، وكأنه نبرة تخرج باجتهاد ترافق بعض الحروف ولا ترافق بعضها الآخر.

وبناءً على ماتقدّم كلّه نرى ضرورة الفصل بين تعريف سيبويه الوارد في باب الإدغام من جهة، وكلامه وما نقل عنه في مواضع أخرى تتحدث عن صوت الصدر من جهة أخرى. ولذلك نرى أن ماذهب إليه تمام حسّان صحيح، إذ صوّب اهتمامه نحو فهم تعريف سيبويه نفسه، لا توجيهه من خارجه. والخلاصة هي أنّ الاستعانة بصوت الصدر لفهم تعريف سيبويه لاتحلّ المشكلة المتولّدة من غموضه أصلًا.

ورأى كانتينو أن تحديد الجهر والهمس تحديد غامض يمكن التناقش في معناه. وقد قبل بعض الغربيين فهم المجهور والمهموس على أساس «نزيز» الوترين الصوتيين، على حين شكّ بعضهم الآخر في صحة هذا الفهم، لأن

(١٤) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص١٢٣، وعبدالصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، ط. أولى ١٩٨٧، مطبعة المدني، ص٢٠٢، وغانم الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص١٣١.

سيبويه وعلماء الأصوات العرب جهلوا الدور المضبوط الذي يقوم به الوتران. ولذلك راح آخرون يفسّرون الجهر بمعنى «القوة»، والهمس بمعنى «الضعف» أو «الخفة» كبرافمان (Bravmann)، أو يفسرون الجهر بالضغط، فالمجهورة حروف مضغوطة (présseés)، والمهموسة حروف غير مضغوطة (non présseés) وهو ماذهب إليه كانتينو، وردّ عليه فليش[١٥]. ويمكن قبول الرأي الذي يذهب إلى أن المقصود من الجهر الوارد في باب الإدغام هو الوضوح السمعي أو مايعادل مصطلح (Éclatante)، أي رنّان، وأن المقصود من الهمس هو مالا وضوح سمعيًا معه، أي مايعادل مصطلح (Étouffée)، أي مخنوق. وهذا مبني على معيار سمعي، أي يتعلق بالأثر الأكستيكي الذي تشعر به الأذن عند سماع الصوت المجهور مقارنة بالصوت المهموس[١٦]. إذن فليس من الضرورة أن يفهم الجهر والهمس اعتمادًا على حركة الوترين وحدهما، أو بمعزل عن الأثر السمعي الذي يتجلى في رفع الصوت ووضوحه مع المجهور، وضعف ذلك مع المهموس.

إن علماء الأصوات المعاصرين أصبحوا أكثر إدراكًا منذ عقود من الزمان للحاجة إلى بيان معايير نطقية للجهر لاتتوقف على حركة الوترين الصوتيين.

---

(١٥) انظر: كانتينو، ص٣٤، وقارن بفليش، دراسة في أصوات العربية (بالفرنسية)، ص٢٣٣.

(١٦) انظر: كانتينو، ص٣٤.

وتحظى أنواع التصويت باهتمام كبير يتجلّى باستعمال الآلات والمناظير وأجهزة التصوير ونحوها، لمراقبة الحنجرة والمجرى الصوتي بكماله[١٧]. ومنذ زمن ليس بالقليل كان هناك تنبه إلى وجود ذبذبات غير حنجرية تحدث نتيجة احتكاك الهواء بالأعضاء الصوتية عند خروجه من الفم أو الأنف[١٨]. وسعيًا إلى إيضاح مفهوم الجهر قدّم عبدالرحمن الحاج صالح (١٩٧١م) مساهمة في علم الأصوات التجريبي شرح فيها - بعد التجربة - آلية الجهر، ورأى أنه يقوم على أمرين، هما:

أ- حركة المزمار (الفرجة بين الوترين).

ب- تخفيض الامتصاصات الجدارية.

ويخلص الحاج صالح إلى أن جدران التجويف الحلقومي والفموي التي يكسوها الغشاء المخاطي تستطيل (تنبسط) ويعتريها شدّ قابل لإحداث رنين. إن توتر الغشاء يقلص إلى حدّ ما امتصاصات الطاقة الصوتية، ويزيد بالنتيجة رنين التجاويف (الفراغات). فالرنين الخاص بالمجهورات- إضافة إلى الذبذبات الحنجرية- هو هذا الجرس المميز الذي ينجم عن زيادة مرونة الجدران[١٩].

---

(١٧) انظر: الموسوعة اللغوية، تحرير كولنج، ترجمة محيي الدين حميدي وعبدالله الحميدان، جامعة الملك سعود بالرياض ١٤٢١هـ، مج ١/ ١٦- ١٧.

(١٨) انظر: عبدالرحمن أيوب، أصوات اللغة، مكتبة الشباب بالقاهرة، ط. أولى ١٩٦٣، ص١٨٤- ١٨٥.

(١٩) انظر: عبدالرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، ٢٠٠٧، ص٢٧- ٣٣ من النص الفرنسي آخر الكتاب.

وقدمت جلوريا بوردن (G. J. Borden)، وكاثرين هاريس (K. S. Harris) تحليلًا متكاملًا لدلائل تمييز المجهور من اللامجهور (كذا في الترجمة) يقوم على مايلي:

١ – ذبذبة الوترين.

٢ – التنفّس.

٣– التردد الأول (هرتز) F١

٤ – فترة الصمت.

٥ – فترة الصائت السابق.

وبإمكان الراغب أن يرجع إلى ماقدّمته الباحثتان من شروح في كتابهما (أساسيات علم الكلام) الذي يضم خلاصة لعدد من تجاربهما في مختبرات هاسكنز في الولايات المتحدة[٢٠]. وخلاصة الأمر عندهما هو أن الدلائل السمعية لإجهار الصوامت تعتمد على الآماد النسبية، وتوقيت الحوادث أكثر من اعتمادها على التردّد، أو الفروق في الشدّة. إن القدرة على تبيّن تمييز متعلق بالجهر على الرغم من غياب ذبذبة الوترين تشير إلى أن التوقيت دليل مهم في إدراك المجهور وغير المجهور في عدة طرق مختلفة. وإذا نحي عمل الوترين جانبًا، فإن الملاحظ هو أن أمد التصويت إذا كان قصيرًا سمع الصوت مجهورًا،

(٢٠) انظر: بوردن وهاريس، أساسيات علم الكلام، ترجمة محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، حلب، بيروت، د.ت.

والعكس صحيح. ولكن الأهم هو أن المجرى الصوتي فوق الحنجري مرنان متغيّر ومصدر صوتي. وهو يضم كلّ الممرات الهوائية فوق الحنجرة. والفجوات المرنانية الكبيرة، هي: الفجوة البلعومية، والفجوة الفموية، والفجوة الأنفية عندما تكون مفتوحة. والمجرى الصوتي يغيّر شكله وحجمه، ومن ثم يغيّر تردّداته الرنينية مع كل صوت. ويطلق على هذه الترددات الرنينية (الرنين غير الدوري) مقابل الرنين الدوري (periodic) الذي يحدث بفواصل زمنية متساوية، ومصدره الحنجرة.

وهكذا يتبين من عمل الباحثتين بوردن وهاريس أن رنين المجرى الصوتي يجتمع مع ذبذبة الوترين، إضافة إلى عوامل صوتية أخرى، لإصدار الصوامت المجهورة. وبذلك يكون هناك مصدران لهذه الأصوات، أحدهما في الحنجرة، والآخر في المجرى الصوتي الذي هو دائمًا مرنان. ولذلك بات المجهور يوصف بأنه مزيج من الرنين الدوري (في الحنجرة)، واللادوري (في المجرى الصوتي). أما في الصوامت غير المجهورة فإن الوترين ينفتحان على نحو واسع كي نحصل على حجم كافٍ من هواء الرئتين لإيجاد الضوضاء أو الضجيج المطلوب في المجرى الصوتي لإحداث هذه الأصوات التي لها مصدر واحد، هو المجرى الصوتي فوق الحنجري[٢١].

(٢١) انظر: السابق، ص١٧١، ٣٣٠- ٣٣٤.

ونخلص بناءً على ماتقدّم إلى أن تفسير تعريف سيبويه للمجهور في باب الإدغام ينبغي أن ينطلق من هذا التطوّر في فهم آلية الجهر، ولا سيما مايتصل برنين المجرى الصوتي، وتأكيد إمكان الجهر من غير ذبذبة الوترين[٢٢]. أما «صوت الصدر» الوارد في مكان آخر من كتابه – كما سبقت الإشارات– فلا بأس من أن يؤول بأنه صوت يدل على نبر ناتج عن حركة الوترين التي يتردّد رنينها وصداها في الحنجرة والرغامى ويوحي بدءًا أنه في الصدر بحسب معارف القوم عصرئذٍ.

وهكذا نستطيع تفسير تعريف سيبويه للمجهور مقتصرين عليه نفسه. فسيبويه – كما نقدّر– فهم بما أوتي من دقة وإرهاف أن هناك قوّة في التصويت ترافق المجهور نتيجة لحصر الهواء في الحلق أو الفم أو الأنف. إنّ هذه الحالة «المسموعة» بوضوح تسبّبها الذبذبات غير الحنجرية على نحو مافهمنا من كلام عبدالرحمن الحاج صالح وجلوريا بوردن وكاثرين هاريس. ولذلك نرى أن سيبويه لم يقصد هنا – في تعريفه– أيّ أثر لنبر صادر من موضع الحنجرة أو الصدر. بل كان واضحًا أنّ هذه العملية تحدث في الحلق والفم والخياشيم نصًّا من غير داعٍ إلى استنتاج و لَيٍّ لأعناق العبارات، كما فعل تمام حسان، على غير ماعرف عنه من دقة في الاستنباط[٢٣]. وإذا كان ضروريًا الرجوع إلى مفردات تعريف سيبويه لشرحها في ضوء تحليلنا، فإن قوله: «حرف أشبع الاعتماد في

(٢٢) انظر: السابق، ص٣٣٣.

(٢٣) انظر: من هذا النحو، تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص٦١– ٦٢.

موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت. فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة...»[٢٤]. إن هذا القول: «الاعتماد في موضعه»، و«يعتمد لهما» – وهو من أعقد الدلالات عند الدارسين– يدل على اتكاء الناطق على منطقة الحرف لامخرجه بالحصر والتضييق. أما «أشبع» فهي بمعنى زيد. فليس لإشباع الاعتماد إلا أن يدلّ على زيادة القصد والاتكاء والاتكال على موضع الحرف بالحصر. على حين أن المهموس لايشهد مثل هذه الزيادة، ولكن قصد الاعتماد موجود، ولا بدّ منه. فالاعتماد هو قصد التصويت في موضع الحرف لافي مخرجه، وهو ناتج عن الحصر، بدليل شرحه للاعتماد في الفم والخياشيم القائم على الحصر وتوليد الغنّة، وهي من صفات القوة. أما سائر عبارات التعريف فأمرها أهون ممّا تقدّم بكثير، على أن يفهم «منع النفس» على مستوى المجرى الصوتي فوق الحنجري ضرورة. ولا بد أن يكون هذا الحصر مختلفًا عن حالة الشدّة التي يكون معها منع للصوت بتمامه من الظهور، إلا بعد انفراج العضوين الحاصرين على مستوى درجات الانفتاح في المخرج.

ويمكن استنادًا إلى ماتقدم كلِّه أن نخلص إلى أن سيبويه فهم الجهر بمعزل عن أي إيحاء بصوت اهتزاز الوترين، إذ حصر الجهر في الحلق والفم والأنف، أي في المجرى الصوتي فوق الحنجري عن طريق الملاحظة النطقية العملية التي

(٢٤) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٤.

تفضي إلى تلقي أثر سمعي واضح. على أن هذا الاستنتاج لايمنع ألبتة أن يكون سيبويه قد أحسّ بأثر اهتزاز الوترين في ملاحظات نطقية أخرى ضمّنها مواضع من كتابه، ربما جعلها معيارًا عمليًا للفصل بين المجهور والمهموس. وإذا كانت الأمور تتميّز بأضدادها، فإنّ تعريفًا للهمس ورد في لسان العرب يكاد يوضح طرفي مفهوم الجهر: «صوت الصدر» ورنين المجرى الصوتي. فالهمس: الكلام الخفي لايكاد يفهم، ومنه الحديث: كان إذا صلى العصر همس.. وقال شمر: الهمس من الصوت والكلام مالا غور له في الصدر، وهو ماهمس في الفم... والهمس والهميس: حسّ الصوت في الفم مما لاإشراب له من صوت الصدر، ولا جهارة في المنطق، ولكنه كلام مهموس في الفم كالسر.. وتهامس القوم: تسارّوا[٢٥]. إذن فالجهر له عنصران مترابطان هنا، هما صوت الصدر، والجهارة في المنطق، ولا شك في أن تعريف سيبويه كان يصف لنا الجهارة في المنطق من خلال آليات النطق. وإذا صحّ ما انتهينا إليه جملة، ولقي قبول الدارسين، كان سببًا لكشف ماغمض من كلام سيبويه على مدى قرون متتالية، وسبقًا يضاف إلى درسه الصوتي الفذّ الذي أحيا به علم الخليل وحفظه للأجيال بهذه الصورة العلمية الرصينة.

(٢٥) انظر: لسان العرب، دار صادر، بيروت (مادة همس) ٦/ ٢٥٠- ٢٥١، وقد نبه الدكتور غانم قدوري الحمد إلى هذا الموضع، انظر: شرح المقدمة الجزرية، ص٢٩١. ويشار إلى أن ابن منظور لم يشر إلى هذا النص في مادة «جهر»، مع أنه نقل نصّ سيبويه بشأن الحروف المجهورة. انظر: اللسان (مادة جهر)، ٤/ ١٤٩- ١٥٣.

المصادر والمراجع

أ- الكتب

١- ابن جنّي، **سرّ صناعة الإعراب**، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق ١٩٨٥م.

٢- ابن سينا، **رسالة أسباب حدوث الحروف**، تحقيق محمد حسّان الطيان ويحيى مير علم، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣م.

٣- ابن عصفور، **الممتع في التصريف**، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب ١٩٧٠م.

٤- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، د.ت.

٥- ابن يعيش، **شرح كتاب المفصّل للزمخشري**، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، د.ت.

٦- الأستراباذي، **شرح الشافية** لابن الحاجب مع شرح شواهده لعبد القادر البغدادي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٦هـ.

٧- الأندلسي، أبو حيّان، **تذكرة النحاة**، تحقيق عفيف عبدالرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦م.

٨- الأنصاري، زكريا، **الدقائق المحكمة في شرح المقدّمة الجزرية**، تحقيق نسيب نشاوي، دار المكتبي بدمشق ١٩٩٥.

٩- أنيس، إبراهيم، **الأصوات اللغوية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. رابعة ١٩٧١م.

١٠- أيوب، عبدالرحمن، **أصوات اللغة**، مكتبة الشباب بالقاهرة ١٩٦٣م.

١١- برجشتراسر، **التطور النحوي للغة العربية**، نشر رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض ١٩٨٢م.

١٢- بشر، كمال محمد، **علم اللغة العام «الأصوات»**، دار المعارف بمصر، ط. سابعة ١٩٨٠م.

١٣- بوردن، جلوريا، وهاريس، كاثرين، **أساسيات علم الكلام**، ترجمة محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، بيروت وحلب، د. ت.

١٤- الحاج صالح، عبدالرحمن، **بحوث ودراسات في علوم اللسان**، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية ٢٠٠٧م.

١٥- حسّان، تمام، **مناهج البحث في اللغة**، دار الثقافة بالدار البيضاء ١٩٧٩م.

١٦- **اللغة العربية معناها ومبناها**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. ثانية ١٩٧٩م.

١٧- الحمد، غانم قدّوري، **الدراسات الصوتية عند علماء التجديد**، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد ١٩٨٦م.

١٨- **شرح المقدمة الجزرية**، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدّة ٢٠٠٨م.

١٩- الخضر اليزدي، **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق حسن أحمد العثمان، مؤسسة الريان، بيروت ٢٠٠٨م.

٢٠- الرازي، فخر الدين، **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٥م.

٢١- روبنز، **موجز تاريخ علم اللغة في الغرب**، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم (٢٢٧)، تشرين الثاني لعام ١٩٩٧م.

٢٢- الزجاجي، **كتاب الجمل في النحو**، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ببيروت، ودار الأمل بإربد، ط. رابعة ١٩٨٨م.

٢٣- السكاكي، **كتاب مفتاح العلوم**، المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧هـ.

٢٤- سيبويه، الكتاب، طبعة بولاق بمصر ١٣١٧هـ.

٢٥- **الكتاب**، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

٢٦- السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، البابي الحلبي بمصر، د.ت.

٢٧- شاهين، عبد الصبور، **أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي**، مطبعة المدني ١٩٨٧م.

٢٨- عبد التواب، رمضان، **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط. ثانية ١٩٨٥م.

٢٩- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، قم بإيران ١٤٠٥هـ.

٣٠- فليش، هنري، **العربية الفصحى**، تعريب وتحقيق عبدالصبور شاهين، دار المشرق، بيروت ١٩٨٣م.

٣١- قدّور، أحمد محمد، **أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين**، ط. ثانية، دار الفكر بدمشق ٢٠٠٣م.

٣٢- مبادئ اللسانيات، ط. ثالثة، دار الفكر بدمشق ٢٠٠٨م.

٣٣- كانتينو، جان، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، الجامعة التونسية ١٩٦٦م.

٣٤- كولنج، **الموسوعة اللغوية،** ترجمة محيي الدين حميدي وعبدالله الحميدان، جامعة الملك سعود بالرياض ١٤٢١هـ.

٣٥- المبرّد، **المقتضب،** تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٩هـ.

٣٦- مكي بن أبي طالب القيسي، **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة،** تحقيق أحمد حسن فرحات، دار المعارف بدمشق ١٩٧٣م.

٣٧- مونان، جورج، **تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين،** ترجمة بدر الدين القاسم، جامعة حلب ١٩٨٢م.

ب- الدوريات

١- أنيس، إبراهيم، «جهود علماء العرب في الدراسة الصوتية»، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج (١٥)، لعام ١٩٦٢م.

٢- الزليطني، محمد لطفي، «ظاهرة الحرف عند اللغويين العرب القدماء»، مجلة المعجمية العربية، تونس، العدد (٢) لعام ١٩٨٦م.